التربية الأخلاقية في البلاد العربية والتحديات الراهنة

إدريس بن مصطفى[1]

مقدمة:

للأخلاق دور هام في الحفاظ على الأمم واستمرارها واستتباب الأمن بها، والتاريخ مليء بالدروس والعبر في هذا الشأن ، فكم من الدول والحضارات اختفت وأفل نجمها نتيجة لانتشار الرذيلة وانعدام الأخلاق بعد أن عانت ظروف ما قبل الانهيار الصّعبة، والعلامة عبد الرحمن بن خلدون يؤكد لنا هذا في مقدمته ويرى بأن استحكام الأخلاق قد يزيد في عمر الدول بينما قد يؤدي الترف الذي يجرّ إلى سوء الأخلاق إلى نخر هيكلها وهلاكها ومن ثم اندثارها.فما واقع الأخلاق في البلاد العربية وخاصة لدى الشباب، وما مشاربها وما هي العوامل المؤثرة فيها ؟ وما آفاق التربية الأخلاقية في ظل التحديات الخارجية القادمة من المجتمعات الغربية خاصة عبر وسائل الإعلام ؟

2-واقع الأخلاق في العالم العربي و تحدياتها :

الأخلاق كما عرفها أبو حامد الغزالي هي إصلاح القوى الثلاث التي هي قوة التفكير وقوة الشهوة وقوة الغضب، وأنّ حسن الخلق هو فعل ما يكره المرء وذلك انطلاقا من الحديث الشريف ((حُفت الجنة بالمكاره ، وحُفت النار بالشهوات)) أو إزالة المرء لجميع العادات السيئة التي عرّف الشّرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم به ([2]).

إن أهم مؤسستين تعكسان لنا مدى تدهور الأخلاق في المجتمعات العربية هما: المؤسسة التعليمية بكل أطوارها بما أصبح يواجهه الأساتذة والمعلمون من مشاكل داخلها تصل إلى الاعتداء بالضرب أو إلى حد القتل العّمدي في بعض الحالات، أما المؤسسة الثانية فهي مراكز إعادة التربية (السجون) التي أصبحت تعج بالنزلاء لدرجة أنها لم تعد تستوعب الأعداد الهائلة منهم، الأمر الذي إن دلّ على شيء فإنّما يدل على تردي الأخلاق لدى شريحة واسعة من المجتمعات العربية تلك الأخلاق التي قد تحول دون الوقوع في تلك الأعمال التي انتهت بهؤلاء إلى السجن، التي يمثل الشباب دوما أكبر نسبة فيها.

إذن ما يلاحظ في عصرنا الحالي في المجتمعات الإسلامية والعربية خاصة هو الابتعاد عن الأخلاق الفاضلة التي نصّ عليها الشّرع صراحة أو عن الأخلاق الحميدة التي ترسّخت في تلك المجتمعات عن طريق التواتر والتوريث، وهذا ما أدى إلى انتشار الرذيلة والجريمة والتصادم بين جيلين، جيل قديم يرى في تمسّكه بكل ما هو موروث خلقا حميدا وأن ذلك هو ما يجب أن يسود -أي الرجل أو المرأة النموذج-، وجيل حداثي أنتجته أو وجهته وسائل التواصل والإعلام الحديثة فأصبح يرى في الجيل

---

[1] جامعة الدكتور مولاي الطاهر -سعيدة- الجزائر

([2]). انظر زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة- مصر 2012م ، 148.

الآخر جيلا بدائيا تجاوزه الزمن فكرا ولبسا ونظرة للحياة، رغم أن الخلق الحميد يمثل عملة واحدة يمكن معرفتها أو التعرف إليها في كافة أنحاء العالم والعكس صحيح وهذا ما يعني على أن أولئك الشباب على علم بسوء ما يقدمون عليه من جهة وانعدام الوازع الديني والاجتماعي لديهم .

إذا بحثنا في الأسباب والعوامل التي أفضت إلى هذا الوضع في المجتمعات العربية لوجدناها كثيرة ومتعددة المشارب، ونجد على رأس هذه الأسباب حسب رأينا التقدم والمستوى الحضاري الذي بلغه العالم بغض النظر عن أصالة تلك الحضارة وخاصة من الناحية المادية أضف إلى ذلك ما تعلق و اتصل بها من مكونات.

إن حضارة القرن العشرين والواحد والعشرين حضارة مادية بكل المقاييس ركزت على المادي من التكنولوجيا ومظاهر العظمة والتقدم وأهملت كل ما هو روحي و وجداني، وهذا ما أدى إلى فراغ روحي رهيب انتقل إلى شباب البلاد العربية عبر السّموم التي بثتها وسائل الإعلام والاتصال في تلك المجتمعات.

لقد أشار عبد الرحمن بن خلدون منذ ما يزيد عن الستة قرون إلى هذا العامل من خلال مقدمته فهو يرى بأن الترف مفسد للخلق بما يحدث في النفس من ألوان الشر والسفسفة ([1]) بينما يرى بأن حياة التقشف تسبغ على البدو أخلاقا فاضلة كالدفاع عن النفس والنجدة والشهامة والغيرة على الاستقلال وأن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر الذين ألفوا الترف فألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف([2])، ويضيف ابن خلدون بأن الترف مثلما له دور في قوة الدول وتحضرها فهو عامل حاسم في ضعفها وتدهورها، والسبب طبعا هو أن عوائد الترف تؤدي إلى العكوف على الشهوات وتثير مذمومات الخلق فتذهب عن أهل الحضر طباع الحشمة ويقذعون في أقوال الفحشاء فتذهب عنهم البسالة والعصبية، كما أن الترف مظهر لميل النفس إلى الدنيا والتكالب على تحصيل متعها فيتفشى بذلك الخلاف والتحاسد والمنازعة ([3]).

كما أن التكاثر المادي وما صاحبه من تدني في الأخلاق كان سببا في ضياع الأندلس أو –الفردوس المفقود– حينما انغمس حكام المسلمين في الترف والملذات حتى وصل بهم الأمر إلى التشبه بأهل الجنة حينما أجروا الجداول تحت القصور، فعبد الحليم عويس يرى بأنه في الحين الذي اتجه فيه أهل الأندلس من عرب وبربر في زيادة ثرواتهم لم ينجح إلا الأقلون في تنمية إيمانهم فمشت الثروة المادية في أكثر الأحيان في طريق مناقض للطريق الذي مشت فيه كتائب الإيمان والدعوة الإسلامية([4])، وما

([1]) . عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت –لبنان–1998م ص170.

([2]) . نفسه ، ص130.

([3]) . رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، دار الثقافة والنشر والتوزيع،القاهرة –1987–1988م، ص64–65.

([4]) . عبد الحليم عويس،التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، ط1، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994م، ص6.

قصر الزهراء إلا خير دليل على ذلك فنجد المستشرق جوزيف كيب يسترسل في وصفه مبهورا بما احتواه من مظاهر الزينة والفخامة والمواد التي دخلت في عملية البناء والتي استوردوها من اليونان وايطاليا وافريقية(1).

من هذا المنطلق ارتأينا أن نسقط ذلك على واقعنا اليوم، فالعالم العربي رغم أنه لا يزال يراوح مكانه فيما يخص التقدم التقني والاقتصادي إلا أنّه تحصل على كل مظاهر الحضارة من سكن ووسائل ترفيه وكماليات والتي يرى ابن خلدون بأن الدولة لا تتجه إليها إلاّ إذا حققت أساسيات العيش ((فإذا اتسعت أحوال البدو وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والحرفة دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس .....))(2) إذن نستطيع أن نربط بعض جوانب المشكل بظاهرة التحضر التي تقتل في المرء الكثير من مكارم الأخلاق كحب الخير للناس والإيثار على النفس ومساعدة الآخرين بالجهد والمال، لأنه وانطلاقا من واقعنا الحالي فإن بلوغ ذلك المستوى يفقد صاحبه الإحساس بألم وحاجة الآخرين اللّهم إلا بعض الحالات النادرة أو الشاذة ويغرس في نفسه من جهة أخرى الأخلاق الدنيئة كالأنانية والحسد والكيد للآخرين وهنا يحضرني قول الفضيل بن عياض(3): ثلاث خصال تقسي القلب، كثرة الأكل وكثرة النوم وكثرة الكلام .

إن العالم منذ الانقلاب الصناعي الذي حدث بداية من النصف الثاني من القرن الثامن عشر بأوروبا بدأ يحول العالم إلى قرية تتناقص أبعادها بتقدم وسائل المواصلات والاتصال فأصبحت المجتمعات والحضارات مفتوحة على بعضها تؤثر وتتأثر بالآخر لكن هنا يجب أن نتساءل عن موقع المجتمع العربي من هذه الحركة .

الحقيقة واضحة فالتأثر يبدو واضحا من الطرف العربي والأسباب وراء ذلك تاريخية قديمة وأخرى حديثة ساعدت عليها وسائل الإعلام بكل أنواعها، فبالنسبة للتاريخية فهو منطق الغالب على المغلوب،أو كما يقول ابن خلدون بأن المغلوب أبدا مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده لسبب هو اعتقاد النفس بالكمال فبمن غلبها وانقادت اليه(4) فكل البلاد العربية خضعت للاستعمار من قبل دول أوروبية عمّرت بها لمدة تزيد عن القرن في بعضها كالجزائر، أو تعدت نصف القرن في أغلبها كالمغرب وتونس وليبيا ومصر، لقد استطاعت الدول الاستعمارية أن تترك أذنابا لها في تلك المجتمعات تدافع عنها وعن مصالحها وفكرها وهم الذين تأثروا بهم فكرا وملبسا فشكلوا حسب رأيهم نخبا متميزة ومتحضرة .

([1]). عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص9.

([2]) . عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق، ص168-169.

([3]). ابن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي خرساني من ناحية مرو بفارس وهو من مواليد سمرقند، انظر الطبقات الصوفية ،ص11.

([4]). عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق،ص 149.

إن الانبهار الحضاري في نفسية العربي تجاه الغربي لا يزال متواصلا، لكن وللأسف فانه سلبي في أغلب الأحيان، فقد يتوقف عند الانبهار بالمظاهر الحضارية –عمران –انجازات صناعية– نظم عمل– دون بذل الجهد للمحاكاة والاحتذاء به لما في ذلك من خير لأمتنا، أو تقليد أعمى لمظاهر اجتماعية بعيدة عن صميم ديننا وعروبتنا وهنا المشكلة الكبرى، فالكثير من السّلوكات الشاذة انتقلت إلى شبابنا عن طريق وسائل الإعلام وخاصة المرئية نبدؤها بطريقة اللبس والمظهر العام سواء لدى الذكور أو الإناث، فالظاهرة العامة التي عمّت المجتمعات العربية هي الموضة التي مسّت الحجاب الذي كان يمثل أهم مظهر من مظاهر الحياء والتخلق لدى المرأة العربية المسلمة، فقد كاد أن يندثر لصالح الحجاب الحداثي الذي تنتفي فيه شروط ومواصفات الحجاب الشرعي الذي لم يعد المرء يميز فيه بين الصالحة والطالحة، أضف إلى ذلك ما يرافقه من مظاهر التبرج والتعطر أو نجد بعضهن كاسيات عاريات بألبسة بعيدة هن مجتمعاتنا ، أما بالنسبة للرجال فقد عمت بعض مظاهر اللبس التي تسيء إلى المفهوم العام للرجولة ومنها إبراز أجزاء من الملابس الداخلية –التّبان– وخفض السروال إلى درجات متدنية – وما يرافق ذلك من قزع نهى عنها الإسلام ووردت إلينا من مجتمعات غربية بعيدة عنا، ذلك المظهر الذي يبدو معه شبابنا منتقيي الأخلاق،ونجد ابا حامد الغزالي لا يغفل هذا الجانب في التربية الأخلاقية فيرى بأن يحبب للطفل الأبيض من الثياب دون الملون وأن يفهمه أن تلوين الثياب ليس من عادات الرجال وإنما هو عادة النساء والمخنثين (1) .

إن أجهزة التلفاز التي دخلت البيوت العربية من أبوابها الواسعة استطاعت أن ترسم معالم اجتماعية وخلقية لجيل جديد متطرف أما ابتعادا أو اقترابا من الدين وبينهما فريق تائه في الاهتداء إلى الطريق السوي، فالتطرف الديني وما جلبه من ويلات للأمة العربية والإسلامية أساء إلى الإسلام أكثر مما أحسن إليه، أما الجانب الآخر فهو ما تبثه تلك الوسائل من سموم لصور اشهارية للأسف انتقلت إلى مؤسساتنا الإعلامية وهي تروج لمنتجات ذات أصول غربية لكنها في نفس الوقت تحمل أبعادا تدميرية لأخلاق شبابنا أو الحياء داخل أسرنا إذ تركز على عرض مفاتن المرأة وكأن الإنسان العربي لا يسعى سوى وراء إرضاء طلبات المرأة وإشباع رغباته الجنسية، أضف إلى ذلك الأفلام الإباحية المخلة بالحياء ترافقها كل أنواع الرذيلة والفساد من تعاطي للخمور والمخدرات ومثلية جنسية أصبحت حاضرة بقوة في مجتمعاتنا بل وفي أرقى مؤسسة علمية وهي الجامعة وأحيائها السكنية، والتي انتقلت رويدا إلى المستويات التعليمية الدنيا –متوسط وثانوي–. والحقيقة التي لا يجب إغفالها أو إنكارها أن تلك الوسائل من تلفاز وانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي حولت شبابنا إلى جسد فارغ من كل القيم الروحية أو شباب مغيّب يسعى إلى تحقيق غرائزه ونزواته بكل الطرق المتوفرة فأنسته بذلك دوره في الحياة وهو البناء والمساهمة في النهوض ببلده الذي هو غاية وهدف التربية الأخلاقية.

([1]). انظر زكي مبارك، المرجع السابق،ص 248.

إن العولمة التي بدأت مظاهرها مع نهايات القرن الماضي وتحديدا في التسعينيات منه بما توفر لها من تطور في وسائل الإعلام لم تؤد إلى ما روجت لها الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية من تعددية متوازية في المؤثرات الثقافية، وإنما عكست ورسّخت وضعا حضاريا عالميا يهيمن فيه النموذج الحضاري الغربي على غيره من النماذج.

وإذا كانت تلك الهيمنة لا تتخذ شكل مواجهة مباشرة، فإنها تشكل نوعا من الزحف الحضاري السلمي وغير المباشر، الذي مس مجموعة من المجالات كفرض نمط غذائي معين من خلال سلسلة المطاعم أوملابس معينة كالجينز أو أغاني كالروك أو الجاز أو البلوز و غيرها، أو من خلال شبكات التلفزيون الغربية، التي حاولت رسم معالم حياة جديدة اقتصادية وفكرية وثقافية ودينية للمجتمعات العربية لعدم التكافؤ في المنافسة ومن ثم فهي تؤدي في كثير من الأحيان إلى هيمنة نموذج حضاري واحد هو النموذج الغربي الأمريكي في المقام الأول.

هناك ظاهرة أخرى لا يجب أن نغفلها وهي مشكلة الحبوب المهلوسة أو عقاقير الهلوسة التي يُطلق على تأثيراتها أحيانًا اسم الرحلات، لأن متعاطيها يرى ألوانا برَّاقة متحرِّكة خلال هذه الرحلة، ويتخيّل كذلك أن حجم وترتيب وشكل الأجسام تتغيَّر باستمرار، وربَّما يصاب المتعاطي بالهلوسة، أي يرى ويسمع أشياء لا وجود لها في الواقع فيقوده ذلك إلى القفز من نافذة دون إدراك منه لأنه لم تعد لديه القدرة على إدراك مقدار الأذى الذي يعرِّض نفسه له ، أو حتى خطر الموت في بعض الحالات حين يعود الى ذكريات الماضي الأليمة أو المفرحة فينتابه شعور جارف بالخوف، أو الحزن، أو الرعب، أو شعور عارم بالمتعة والمحبَّة ، كما يعتقد متعاطو هذه العقاقير خلال الرحلة بأنهم اكتسبوا فهما جديدًا للّه وللكون ولأنفسهم ، لكن الحقيقة غير ذلك لأنهم ابتعدوا عن الواقع المعاش والموقع الحقيقي لهم داخل المجتمع ، ناهيك عن ما قد يقومون به من أعمال قد تصل إلى الاعتداء اللفظي أو الجسدي على الآخرين مثلها مثل تعاطي المخدرات بأنواعها والخمور التي قد تؤدي بصاحبها إلى ارتكاب الجرائم باعتبارها أم الخبائث لأن الجريمة لا يمكن أن نحددها بالقتل فقط فهي مصطلح يطلق على ممارسة التصرف الممنوع قانونًا، فقتل الإنسان يُعدُّ جريمة في كل البلاد لكن هناك جرائم أخرى تشمل: السرقة، ومقاومة الاعتقال، وحيازة المخدرات وبيعها، وخدش الحياء في الطريق العام، وقيادة السيارة تحت تأثير الكحول، والسطو على المصارف.

أما الجريمة في لغة العرب فهي الذنب والتعدي، وعند علماء الإسلام هي محظور شرعي معاقب عليه بقصاص أو حد أو تعزير، الجريمة كالقتل والزنا والقذف والسرقة والحرابة وشرب الخمر أو بترك شيء أمر الشارع بفعله كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك، فلا تكاد وسائل الإعلام العربية تخلو من أعداد هائلة من الجرائم المختلفة يوميا حتى أصبح الأمر يبدو عاديا رغم أن تلك الجرائم إلى وقت ليس بالبعيد كانت نادرة جدا وغريبة عن مجتمعاتنا العربية.

إن أهم ظاهرة رافقت هذا التحول هي انتفاء الحياء، فلم يعد الشباب يحترم ويقدر شيوخه وكباره ، ولا التلميذ أو الطالب معلمه أو أستاذه، بعد أن كان هذا الأخير يمثل قدوة ومثلا أعلى لتلاميذه وطلبته ، وربما كان هذا الجيل نتاجا لبعض الأساتذة أو المعلمين الذين افتقدوا تلك المنظومة الأخلاقية وفاقد الشيء لا يعطيه طبعا، والرسول الكريم يقول ((ليس منا من لم يوقر صغيرنا ويحترم كبيرنا))، إذن فهذه سابقة خطيرة في مجتمعاتنا لأن الإسلام بني على مكارم الأخلاق وفي هذا الشأن يقول أحمد شوقي

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ********** فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إن المدرسة التي كانت تمثل مكانا مقدسا إلى جانب المسجد والكتاب وكانت تمثل جزءا من وسائل تمرير المنظومة الأخلاقية ومفتوحة على المحيط بحيث تؤثر فيه بما تنتجه من إشعاع علمي وأخلاقي أصبحت منغلقة على نفسها متأثرة بالشارع ، ومن مظاهر ذلك ما أصبح يتعرض له الأستاذ والمعلم من إهانة من قبل التلاميذ تتمثل في السب والشتم والكلام البذيء و قد تصل إلى حد الضرب، هذه الظاهرة التي أصبحت تتكرر بشكل متسارع أو دوري وأصبحت تمثل جزءا من اهتمامات وسائل الإعلام العربية أضف إلى المضايقات التي أصبحت التلميذات والطالبات تتعرضن لها داخل المؤسسة التربوية وفي محيطها، إذن فالظاهرة خطيرة وتستدعي الاهتمام والدراسة .

إن الأخلاق لا تقتصر على دين دون آخر أو زمن دون أخر، فالكل يدرك بأن مساعدة الغير فضيلة وإيذائه رذيلة ولدينا في التاريخ العربي والإسلامي أمثلة عن ذلك، فقد وردت أحاديث كثيرة عن الرسول صلعم ، تجعل كمال الإيمان في حسن الخلق، فعن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله أيّ المؤمنين أكمل إيمانا ؟ قال :أحسنهم خلقا.

هذا من الناحية النظرية العامة، أما من الناحية العملية، فهناك فضائل عملية كثيرة حَثّ الإسلام عليها، بل إن الرسول أقرّ بعض الأخلاق الطيبة التي كانت سائدة في الجاهلية كفضيلة الكرم ، لدرجة أن رسول الله أمر في إحدى المعارك بفكّ أسر بنت حاتم الطائي لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وقد وردت أحاديث كثيرة في الحَثِّ على هذه الفضائل، من ذلك ما جاء في حفظ الأمانة وذم الخيانة، عن أنس بن مالك قال: ما خاطبنا رسول الله إلا قال: ((لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له)) ففي هذه الوصية يقرن بين الدين والوفاء بالعهد وينفي الإيمان عن الذي لا أمانة له، وقوله صلعم ((إن لكل دين خلقا، وإن خُلق هذا الدين الحياء)).

الحلول المؤدية إلى الخروج من هذه الوضعية: إن منظومة الأخلاق الإسلامية تمتاز بالفطرية لأن التمييز بين الخير والشر إلهام داخلي مركوز في النفس الإنسانية، كما تمتاز بالشمولية لأنها تعنى بكل جوانب الحياة الإنسانية اقتصاديا واجتماعيا و سياسيا، وهي ترعى الإنسان من ولادته إلى وفاته وتوجه الفرد المسلم في كل حركاته، إضافة إلى الكلّية لأنها لا تخص شعبا دون شعب أو زمانا دون آخر لأن الأصل والمنبع في الإنسان واحد والإله واحد.

من هذا المنطلق نرى بأن تربية الخلق معلقة على إزالة الخلق السيئ وأن ذلك ممكن انطلاقا من قول الرسول صلعم ((حسنوا أخلاقكم)) ، وبدليل وجود الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب ما يدل على عدم حتمية السلوك أو الخلق سواء السيئ أو الحسن لدى الأشخاص .

لقد أصبحت القضية هنا قضية تحدي وسط(1) أو ظروف بشرية اتخذ فيها العدوان شكل غزو خارجي أو قوة ضاغطة على مجتمعاتنا العربية، ولنا في التاريخ مثال على ذلك هو أن غزو الحضارة الهلينية قد أدى فيما بعد إلى إزاحة الإسلام لها من بلاد ومصر ثم القضاء على الدولة الرومانية الشرقية (2) فيتوجب على المجتمعات العربية أن تستجيب لهذا التحدي والذي لن يتم بالطبع إلا إذا أحست هذه الأخيرة بالخطر واستثار فيها الطاقات المبدعة فتكون تلك هي الاستجابة الناجحة، فتبدأ بذلك مرحلة صراع جديد حتى يصبح الفعل إيقاعا منتظما يحمل كل طرف على محاولة ترجيح كفته لا الوقوف بها عند حالة التوازن(3)، إذن فالمهمة ليست بالسهلة ولا يمكن التغاضي عنها أو تأجيل إيجاد الحلول لها،لأن الداء كلما طال استفحل وتناقصت معه فرص الشفاء وازدادت إمكانيات الوفاة، وهذا بالطبع لن يتم إلا بتجسيد تربية أخلاقية تنطلق من مستويات عدة تشمل البيت والمدرسة ووسائل الإعلام ومؤسسات إعادة التربية .

والمقصود بالتربية الأخلاقية تنشئة الفرد والمجتمع تنشئة متكاملة يُراعى فيها الجانب الروحي والمادي، في ضوء منظومة المبادئ الدينية والأعراف الشاملة، وهي تُعنى بالفرد وإعداده لحل مشاكله، ومدى نجاحه في تحقيق رغباته المشروعة والممكنة التي تضمن له حياة هانئة في الدنيا والآخرة.

والغزالي يتخذ من البدن مثالا للنفس، فكما أن البدن إذا كان معافى وصحيح فدور الطبيب تمهيد القانون لحفظ الصحة وان كان معتلا مريضا فدوره جلب العافية والصحة إليه، فنفس الشيء بالنسبة للنفس فان كانت زكية وطاهرة فيجب السعي إلى حفظها واكتساب زيادة صفائها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها، وكما أن العلة الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخّي ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا، وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ([4]).

([1]). يرى أرنولد توينبي صاحب نظرية التحدي والاستجابة أن الظروف الصعبة التي تتحدى الإنسان وتستحثه على العمل لتكوين حضارته أو الحفاظ عليها إما بيئية طبيعية أو بشرية .

([2]). أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية،الاسكندرية–مصر1975م، ص269.

([3]) . أحمد محمود صبحي، المرجع السابق، ص270.

([4]). زكي مبارك ،المرجع السابق،ص157.

يرى عامة الناس أو السواد الأعظم منهم أنهم أحرار كلما جاز لهم الإذعان لميولهم ويرون أنهم يتنازلون عن حقوقهم كلما أرغموا على العيش وفق القواعد التي يقضي بها القانون الإلهي والأخلاقية إذا والدين وعلى وجه الإطلاق كل ما يتعلق بقوة النفس إنما هي في نظرهم أحمال يأملون إنزالها بعد الموت كي ينالوا جزاء عبوديتهم أو أخلاقيتهم وتدينهم([1]) ومن هنا يجب على الدول العربية أن تركز في مناهجها التربوية على مفهوم الحرية الحقيقي وما يقابله من مسؤولية وجزاء .

إن أهم ما يجب تربيته في الفرد هو الضمير المتيقظ – النفس اللوامة –لأن الضمير قد يتغير وهو في نفس الوقت وثيق الارتباط بالأخلاق، والضمير كما يعرفه البعض هو ذلك الصوت المنبعث من أعماق الصدور آمرا بالخير أو ناهيا عن الشر وان لم ترج مثوبة أو تخش عقوبة، وأن الشرع هو المكيف للأعمال إما حسنا أو قبحا حسب الغزالي ([2])، لكن هناك عوامل تساعد على نشوء الضمير، فالفلسفة مثلا تعطي لدارسها نوعا من الشعور بالمسؤولية إزاء بعض الجوانب والأخلاق توجد للباحث فيها نوعا من إدراك لواجبكما أن الشريعة تورث كذلك المتدين بها نوعا من الوجدان([3]) لكن الضمير لا وجود له في ذاته و إنما ينشأ من الشرائع الوضعية والسماوية، لأن الضمائر تختلف من شعب لآخر ومن زمن لآخر فنجد جريمة السرقة قد مثلت فضيلة عند بعض الشعوب وكان من تنقصه المهارة فيها محل احتقار واستهجان من قبل الرأي العام و تأنيب الضمير كما أن نهب مال الغريب لا حرج فيه عند فريق من القبائل البربرية، وحسب زكي مبارك أن فكرة الضمير إذا صح أن تكون عامة فيجب أن تقصر على المنافع البشرية على معني أن الضمير هو الحاسة التي تتألم لما يتوجع له الإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن دينه ووطنه ومذهبه، فان للإنسانية وشائج لا ينال منها اختلاف المذاهب ولا تباين اللغات ولا تباعد الأقطار([4]).

إن أول مؤسسة تنطلق منها التربية الأخلاقية هو البيت حينما يكون الطفل صفحة بيضاء يمكن رسم ملامحها وتوجيهها وفقا لإرادة الوالدين وما يؤكد لنا هذا هو قول الرسول الكريم ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه إما يمجّسانه أو يهودانه أو ينصرانه))، كما قرر الغزالي حين تكلم في التربية أن قلب الطفل جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما ينقش عليه([5]) ومن هنا ندرك بأن الفطرة قابلة لكل شيء وأن الخير يكسب بالتربية ونفس الشيء بالنسبة للشر.وفي سن الصبي تكون طبيعة الطفل مرنة قابلة للإصلاح والتهذيب لأن الصغير أسلس قيادة وأحسن مواتاة وقبولا فتسهل

([1]). باروخ سبينوزا،علم الأخلاق، ط1، ترجمة جلال الدين سعيد ومراجعة جورج كتورة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت–لبنان2009،،ص350.

([2]). زكي مبارك ،المرجع السابق، ص126.

([3]). نفسه، ص126.

([4]). نفسه، ص128.

([5]). نفسه، ص161.

تربيته،ويستشهد ابن الجزار هنا بقول فيلسوف :إن أكثر الناس إنما أوتوا في سوء مذاهبهم من عادات الصبا اذا لم يتقدمهم تأديب وإصلاح أخلاقهم وسياستهم([1]).

ان الأمر ليس بالسهل فالمهمة تتطلب حكمة وتعقلا في عملية التربية لأن هناك من يرى بأن العقاب البدني هو الحل لكن ذلك هو أسهل الطرق وأقربها وكما يقول المثل إذا رأيت طريقا سهلا فاعلم أنه في أغلب الأحيان لا يؤدي إلى شيء و أبو الحسن القابسي يحث المربي على اللجوء قبل الضرب الى العذل والتقريع بالكلام الذي فيه التواعد من غير شتم ولا سب لعرض لأنه بذلك يجرح شعوره وتثير نفسه وتزرع فيه كراهية معلمه أو مربيه ([2])، وإنما يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السّوء وأن لا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية حتى لا يتعود النعيم فيعسر تقويمه بعد ذلك، وهنا نجد الاتفاق موجودا بين أبي حامد الغزالي وابن خلدون بخصوص أثر الترف السيئ على الأخلاق.

إن التحدي الأكبر لمنظومتنا الأخلاقية كما أشرنا سابقا هو وسائل الإعلام والاتصال والتي يمكن للوالدين التحكم فيها ومراقبتها ومراقبة البرامج التي تبثها أو مراقبة استعمالاتها –التلفزيون والانترنيت–، وبالموازاة مع ذلك يجب تربيتهم تربية أخلاقية تقوم على حب الله، إذ بقدر ما تنشرح النفس بالحب الإلهي أو الغبطة تزداد معرفتها، أي أنها بقدر ما يكون سلطانها على الانفعالات أعظم يكون تأثرها بالانفعالات السيئة أقل ([3])، إن أي دين سماوي لا شك يمد معتنقه بالحكمة ويبعده عن الجهل، وبذلك يصبح مراقبا لأفعاله غير منقاد لشهواته ولا تتقاذفه العوامل الخارجية كما تفعل بالجاهل الذي يكاد يكون على غير علم أو وعي بذاته وبالإله والأشياء على حد تعبير سبينوزا ([4])، والشيء الأكيد أن الأخلاق لا تتكون عند الإنسان إلا بالدين والإيمان بالله واليوم الآخر على أن يكون ذلك حقيقة لا لفظا وادعاء فالأخلاق بدون دين لا تكمن أخلاقا صحيحة وإنما خيالية([5]).

إن التاريخ العربي و الإسلامي مليء بالمآثر الأخلاقية والأمجاد والبطولات التي يمكن أن تكون نبراسا لشبابنا يهتديي به وهنا تتبدى لنا المسؤولية العظيمة الملقاة على وسائل الإعلام العربية التي يتوجب عليها إيجاد النموذج المناسب للشاب العربي كنموذج بديل لما تبثه وسائل الإعلام الغربية وحتى بعض الأفلام العربية التي أصبحت مكرسة لذلك النموذج .

ويرى الغزالي في كيفية تربية الخلق أن من الناس من ولد حسن الخلق بفطرته دون الحاجة إلى تعليم ولا تأديب مثل الأنبياء كعيسى ويحيى ومحمد عليهم السلام الذي كان بوصف الله على خلق

([1]). انظر أبو الحسن علي القابسي، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين،ط1،دراسة وتحقيق أحمد خالد،الشركة التونسية للتوزيع،تونس 1986،،ص30.

([2]) . أبو الحسن علي القابسي،المصدر السابق، ص31–32.

([3]) . باروخ سبينوزا، المرجع السابق، ص351.

([4]) . نفسه، ص351.

([5]) . محمد الحسيني الشيرازي، فلسفة التاريخ، ط2،مؤسسة الوعي للطباعة والترجمة والنشر،2006،ص28.

كريم، رغم أن هناك أقوال بغير ذلك لأن عصمة الأنبياء كانت في تبليغ الرسالة فقط وفي القرآن شواهد كثيرة على غفران ما تقدم وتأخر للنبي محمد صلعم من الذنوب ([1]).

إن التربية الأخلاقية أصبحت ضرورة ملحة لدى جميع الدول العربية وبكل طوائفها الدينية وشرائحها الاجتماعية لمواجهة التحديات الراهنة والتي نرى بأن مصدرها الأكبر هو الغرب الذي يريد فرض نمطه ونظامه الاجتماعي على مجتمعاتنا وهنا أكدنا على صيغة الجمع لأن الأديان السماوية كلها دعت إلى مكارم الأخلاق التي هي ذاتها لديها كلها فنجد أن القرآن، بالمقارنة مع التوراة، ركّز على نفس المعالم الأخلاقية فقد تكرر ورود بعض الوصايا في القرآن الكريم، من ذلك: لا تقتل، في التوراة يقابلها في القرآن :(ولا تقتلوا أنفسكم)([2]) لا تَزنِ، في التوراة يقابلها في القرآن(ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا)([3]) وقد وردت في التوراة وصية لا تسرق، يقابلها في القرآن (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما) ([4]) وغير ذلك من الآيات.

ونفس الشيء بالنسبة للوصايا التي وردت في الإنجيل فنجد أنها تصدر جميعا من نفس المنبع، اللهم إلا ما تعرّض منها للتحريف، من ذلك ما ورد في الإنجيل، قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زَنى بها في قلبه[5] يقابلها في القرآن (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ¦ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) ([6]) وكذلك ورد في الإنجيل اسألوا تُعطوا[7] يقابلها في القرآن (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ)([8]).

خاتمة:

إن التاريخ مليء بالشواهد التي تدل على سوء عاقبة الأخلاقيات المنحرفة ، فالإنسان إذا استقامت أخلاقه وكانت نابعة عن إيمان وتعقل لا بد وأن يزدهر ويتقدم ويصل إلى هدفه ودوره في الحياة، لكن انتشار الرذيلة والأخلاق السيئة تعني تخلي الأفراد عن مهامهم المنوطة بهم في الحياة وهم يمثلون دعائم الدول، فباهتزازهم تهتز أركان الدولة وتسود حالة اللا أمن التي لا تستقر للدول معها حال

([1]) . زكي مبارك، المرجع السابق، ص 150.

([2]). سورة النساء،الآية 29.

([3]). سورة ألإسراء، الآية .32

([4]). المائدة، الآية 38.

([5]). متىً 275-29.

([6]). سورة النور، الآية 30-31.

([7]). متىً 7-7.

([8]). سورة البقرة، الآية 186.

ولا تستطيع النهوض والتقدم، ومن هنا فعلينا بمكارم الأخلاق وترك الذنوب كما قال ذو النون المصري: لله عباد تركوا الذنب استحياء من كرمه بعد أن تركوه خوفا من عقوبته .